

# سلسلة كيف تصبح عالماً الدرس الخامس ج 4

الكاتب: د راغب السرجاني



## كيف تصبح عالماً؟

الدرس الخامس: ميراث الأنبياء

أ. د. راغب السرجاني



## استكمال الجانب العلمي في حياة الصحابة

### أسد بن الفرات

لقد كان محمد بن الحسن الشيباني لا ينام، هو كإنسان يريد أن ينام، فلا تظنوا هؤلاء الناس لم يكونوا بشرًا فالنwoي رحمه الله والبخاري ومحمد بن الحسن الشيباني كان يأتيهم النوم، فالواحد منهم عنده أمور خاصة بأسرته وماله وتجارته! لكن عرف قيمة العلم فبذل الجهد فيه، فمحمد بن الحسن لم يكن ينام، بل كان يستعين على السهر بالماء البارد، وهو من سكان بغداد وفي الشتاء يكون الجو بارداً جداً، ومع ذلك يأتي بماء بارد ويضعه بجواره، وكلما هجم عليه النوم مسح وجهه بالماء البارد، ويقول: النوم يأتي من الحرارة، والماء البارد يغلبه، فيغسل وجهه كل قليل، يقهر نفسه للجلوس للتعلم.

ومحمد بن الحسن الشيباني وأبو يوسف هما أعظم تلامذة أبي حنيفة رحمهم الله جميعاً.

وهذه قصة عجيبة لأسد بن الفرات رحمه الله عندما ذهب لطلب العلم، وأسد بن الفرات من علماء الأندلس وتونس شمال أفريقيا، أتى من تلك البلاد البعيدة ليتعلم في الشرق، فجاء إلى المدينة المنورة فأخذ علم مالك رحمه الله، ثم رجع إلى بلاده ونشر المذهب المالكي في شمال أفريقيا، وهي الان تونس والجزائر والمغرب، فكل دول المغرب على المذهب المالكي.

فأسد بن الفرات ذهب إلى المدينة المنورة وتعلم علم الإمام مالك كله، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى العراق من أجل أن يأخذ علم أبي حنيفة عن محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، فحين دخل المسجد تفاجأ بوجود أعداد هائلة من البشر، ولم يستطع الوصول إلى محمد بن الحسن، وما زال يأتي

مبكراً إلى المسجد حتى إنه في يوم من الأيام استطاع أ، يصل إلى محمد بن الحسن الشيباني وجلس معه بعد ما سمع الدرس وقال له: أنا رجل غريب من بلاد بعيدة قليل النفقه والسماع منك نذر، ولا أستطيع أن أبقى كثيراً في بغداد فماذا أعمل؟ فقال محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله: في الصباح تسمع مع أهل العراق الذين يأتون الدرس، والليل اجعله لك أعلمك لوحدك في البيت.

هذه هي العظمة، وتاريخنا كلها عظمة، وقد توجد بعض المواقف السلبية في كل أمة، لكن فتنش في كنوز التاريخ الإسلامي، هذا هو تاريخنا، وأنا أذكر فقط بعض الأمثلة لا أذكر كل ما وقعت عليه عيني؛ لأن الوقت لا يتسع لذكرها، فهي تحتاج إلى شهور وشهور، بل سنوات وأعمر حتى نتحدث عن تاريخ علمائنا.

فأسد بن الفرات كان يذهب كل ليلة إلى محمد بن الحسن ليعلمه العلم، وكان يسهر مع محمد بن الحسن، وكما ذكرنا أنه متعدد على الماء البارد، فكان كلما هجم عليه النوم غسل وجهه، لكن أسد بن الفرات كان إذا هجم عليه النوم قام محمد بن الحسن ورش في وجهه الماء حتى يستيقظ.

هذه لحظات نادرة عظيمة، هذه هي الأعمار وهي أغلى ما تملك، فالعمر رأس مالك، فإن ذهب بعض عمرك يوشك أن يذهب الكل.

وكما تعلمون أن من نام ثمان ساعات في اليوم فإنه لو عاش (60) سنة يكون قد نام 20 سنة من عمره؛ لأن الثمان الساعات هي ثلث (24) فيكون ثلث الـ (60) سنة (20) سنة، بالله عليك خبرني ألا تحزن على هذه السنوات (20) سنة تناها في (60) سنة، هذا لا ينفع، لكن لا تذهب وتنام غير ساعة واحدة، وإنما بتدرج، وستتكلم إن شاء الله في دروس قادمة على كيف تستيقظ؟ ليس فقط بالماء البارد، لكن أهم شيء أن تعرف قيمة الشيء الذي استيقظت من أجله، حتى تستيقظ له بجد، فمحمد بن الحسن كان يرش الماء في وجه أسد بن الفرات حتى يستيقظ فيعلمه، يرجعه العلم تجريعاً، فبقي أسد بن الفرات في العراق حتى حوى علم أبي حنيفة عن طريق تلميذه محمد بن الحسن وعاد إلى تونس وبدأ يعلم الناس هناك، ونشر مذهب الإمام مالك، وعلم الناس فقه

أبي حنيفة رحمه الله، وخرج بعد ذلك مجاهداً ففتح صقلية واستشهد، هذه قمم في الإنسانية، فأسد بن الفرات رحمه الله صار إلى ذلك بالسهر والسفر لأجل العلم.

وهذا سعيد بن المسيب رحمه الله سيد التابعين كان يقول: كنت أرحل للحديث الواحد الليلي والأيام، هناك مجموعة كثيرة من الناس عاصرت الصحابة، لكن ليس كل الناس علماء، وليس كل الناس سعيد بن المسيب رحمه الله. والإمام البخاري تعلم على يد ألف شيخ سافر إليهم إلى مختلف البلدان في العالم الإسلامي في ذلك الوقت؛ من أجل العلم.

والرازي رحمه الله كان يقول: سافرت ماشياً على قدمي في طلب العلم ألف فرسخ، يعني: (500) كيلو يقول: ثم بعد ذلك تركت العدد. يعني: أنه لم يمش (5000) كيلو وتوقف، لا، وإنما توقف عن العد، فصار يمشي من غير أن يعد، فهو عد لنفسه (5000) كيلو ماشياً على الرجلين؛ من أجل أن يصل إلى العلم.

### بقي بن مخلد

لقد كان بقي بن مخلد من علماء الأندلس وكان فقيراً ليس عنده مال، لكن عنده علم كثير وعنه همة عالية، فهو عندما علم أن العلم موجود في الشرق، وسمع عن شخص اسمه أحمد بن حنبل رحمه الله وأنه أعظم وأعلم أهل الأرض في زمانه، وإمام أهل السنة والجماعة رحمه الله، وأنه يسكن في بغداد، ويقي بـ مخلد في الأندلس، التي هي في هذا الوقت إسبانياً والبرتغال، فهو فقير وليس عنده مال، فماذا عمل؟

قال: اشتغل بجد واجتهاد من أجل أن أحصل على بعض الأموال التي تكفي مئونة بعض الأيام، فانتقل بها من مدينة إلى مدينة، فإذا وصلت إلى المدينة الثانية عملت فيها حتى أتكسب بعض المال الذي يكفيه إلى المدينة الأخرى.. وهكذا حتى أصل إلى بغداد، خرج سيراً على الأقدام من الأندلس، ثم المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، فلسطين، الأردن، بعد كل هذا

العناء والتعب وصل إلى العراق مشياً على رجليه، بقي في الرحلة سنتين يمشي على رجليه، فلما وصل إلى بغداد سأله قال: أليست هذه البلد التي فيها أحمد بن حنبل قالوا: نعم، لكن أحمد بن حنبل محبوس.

انظروا له سنتان يمشي حتى وصل إلى بغداد فيجد الإمام أحمد محبوساً!! ليس هذا فحسب، بل بعد أن خرج الإمام أحمد من السجن منعوه من التدريس، ومنعوه من الخطابة، فجلس في بيته تحت الإقامة الجبرية وعليه رقابة من الأمن، فالإمام أحمد بن حنبل يمنع من التدريس خوفاً على الناس من الفتنة، فبقي بن مخلد لما رأه ممنوعاً من التدريس بحث عن شيخ آخر يأخذ منه دروساً، فقالوا له: هذا يحيى بن معين من أعظم علماء المسلمين، فهو إمام المسلمين في الجرح والتعديل وفي علم الرجال وأسانيد الأحاديث، فذهب يسأله ويتعلم منه. ويحيى بن معين رحمه الله عندما تساءل عنه وتقول له: فلان من رجال الحديث يقول: نعم هو ثقة، وهذا صدوق، وهذا كذاب، وهذا وضاع..

فهو يجرح ويعدل فذهب بقي يتعلم، فلما دخل على يحيى بن معين المسجد وجد زحاماً، فلم يصل إليه إلا بعد أيام، يقول: كنا نذهب إلى المسجد بعد صلاة العصر من أجل أن أحجز مكاناً لفجر اليوم التالي. كيف كان يتصرف؟ هل كان يضع المفتاح مكانه؟ الله أعلم، المهم أنه كان يجلس في مجلس يحيى بن معين قبل الدرس بنصف يوم؛ من أجل أن يضمن السماع؛ لأنَّه لم يكن هناك (ميكروفونات) نحن في نعمة، والله لتسألن عن النعيم، سنسأله عن هذا النعيم، في هذا الوقت عندنا أشرطة، وكتب، وسيديهات، وكمبيوتر، وفضائيات، وبرامج، وخطب ومساجد، وحلقات، ومع ذلك كله تزهد الناس في العلم.

وذكرنا أن جابر بن عبد الله ذهب إلى الشام من أجل حديث واحد، والواحد منا يكسل أن يذهب إلى المكتبة القريبة من أجل أن يأتي بحديث ويكسلاً أن يبحث عن مسألة، لكن بقي بن مخلد ذهب إلى مجلس يحيى بن معين فبدأ يسألها، جاءت له الفرصة أخيراً بعد أيام تبكيرو حجز، فقال له: ماذا تقول في فلان؟ فقال: هذا صدوق، وفلان؟ هذا ثقة، وفلان؟ هذا كذاب، فظل يعدل ويجرح، فقال بقية الطلبة: حسبك، نحن نريد أن نسأل أيضاً، لست وحدك في المسجد،

أعطنا فرصة، فقال لهم: أنا لي سنتان أمشي من بلادي حتى وصلت إلى هنا من أجل أسأل، فقام وسائل السؤال الآخر: ما تقول في أحمد بن حنبل؟  
قال: مثلي يسأل عن أحمد بن حنبل، هذا إمام المسلمين وخير المسلمين وأفضل المسلمين، فلما سمع هذا الكلام قال: أنا لابد أن أصل إلى أحمد بن حنبل هذا، فماذا عمل حتى يصل إلى الإمام أحمد؟ قام ولبس لبس متسلول، وربط على رأسه خرقة، وأمسك عصا بيده، ثم ذهب يسأل: أين بيت أحمد بن حنبل؟ فدل عليه، لكن الرقابة خارج المنزل، فذهب يدق الباب، ففتح له أحمد بن حنبل، وقال له: أنا سائل. فقال له الإمام أحمد: ادخل أعطك شيئاً، فلما احتلى به قال له: يا إمام أنا قدمت من بلاد بعيدة، قدمت من المغرب من الأندلس، جئت أتعلم فوجدتني في هذه الحالة التي ترى، فهل تأذن لي أن آتيك كل يوم بهذا اللباس وأنا غريب عن البلد ولا يعرفني أحد، فتحدثني الحديث أو الحديثين؟

انظر إلى أي درجة وصل به الأمر من أجل أن يأخذ حديثاً وحديثين وثلاثة. والآن مسند أحمد بن حنبل موجود عندنا في كل المكتبات، اذهب وافتح وتعلم العلم الذي جعل بقي بن مخلد رحمه الله يسافر سنتين سيراً على الأقدام؛ من أجل أن يتعلم في كل يوم حديثاً.

ومسند أحمد بن حنبل فيه (30000) حديث غير مكرر، وهو مسند ضخم من أعظم المسانيد التي فيها أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فأحمد بن حنبل رحمه الله وافق وأذن له، مع أنه قد يتعرض لخطر عظيم، لكن هذا شخص أتى من الأندلس ليعلمه، فظل كل يوم يدخل عليه في هيئة سائل، وكان يأخذ حديثاً أو اثنين، وأحياناً ثلاثة، حتى لا يطيل فيلفت الانظار؛ لأن الرقابة في الخارج.

ومررت الأيام ورفع الله عز وجل المحنّة، وتولى خليفة يعظم السنة فآخر الإمام أحمد بن حنبل وجعل له مكاناً في المسجد يعلم الناس، قال بقي: فكنت أذهب إليه في المسجد، فيأمر الناس أن يوسعوا لي حتى أجلس قريباً منه، وكان يهش لي ويبيش وفي يوم من الأيام مرض بقي بن مخلد وكان مستأجرًا غرفة في فندق وجلس فيها، فلما افتقده أحمد بن حنبل وقال: أين

بقي؟ قالوا: إنه مريض فقام الإمام أحمد بن حنبل ليزوره بنفسه، فلما مشى سار الناس خلفه، وكل منهم يمسك ورقة وقلماً بحيث إذا تكلم كتبوا لفظه، أي كلمة يقولها يكتبونها، أي فضل هذا؟  
هل أثاله بمال أو بسلطان أو بنسب أو بعائلة؟ ناله بالعلم فقط، ما يعلو عليهم إلا بالعلم، كان من أفق المسلمين رحمه الله، سافر إلى كل بلاد المسلمين من أجل أن يتعلم، ذهب إلى الكوفة، والبصرة، ودمشق، والمغرب، وخراسان، والجaz، واليمين، لما ذهب إلى اليمين يحمل الدقيق للناس بدرهم في اليوم؛ من أجل أن يصرف على نفسه ويتعلم على علماء اليمين، يأخذ أحاديث من علماء اليمين الذين وصلتهم أحاديث ولم تصله، ولما رجع من اليمين تشقت رجلاته؛ لأنه ذهب ماشياً ورجع ماشياً، قد يقول شخص: قد آن الأوان ألا يرتحل، ومررت أيام فيقول أحد المعاصرين للإمام أحمد: فسألت عنه فقيل: إنه ذهب يتعلم على يد شيخ في حمص.

فالناس يمشون مع الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فدخل الفندق بهؤلاء الناس كلهم، فلم يستوعب الفندق هذه الأعداد، يقول بقى: فسمعت جلبة وارتجم المكان الذي أنا فيه، فجاء صاحب المكان إلى مسرعاً وقال لي: هذا إمام المسلمين أتي بنفسه ليزورك، فدخل الإمام أحمد بن حنبل ومسح على رأسه ودعا له بالشفاء، ثم خرج، يقول بعد ذلك: ما رأيت خدمة أعظم من هذه الخدمة التي خدموني بها في الفندق، صاروا يقولون: هذا من تلاميذ الإمام بن حنبل فبقى بن مخلد رحمه الله في بغداد حتى حوى العلم ثم عاد إلى بلاده ومات في الأندلس رحمه الله.

هذه يا إخواني بعض الأمثلة والأمثلة كثيرة جداً لا أستطيع أن أكملها، وأشعر أنكم يعني قد سهرتم بما فيه الكفاية، ونحن نأخذ الموضوع بالتدريج، والأمثلة الباقية في غاية الروعة، ولذلك سنوجلها إن شاء الله حتى نستوعبها تمام الاستيعاب، وننتقل بها إلى حيز العمل والحركة، لا نريد كلاماً فقط للإستمتاع، أو أن نقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله فقط، فعلماء المسلمين كانوا عظماء فضلاء، فأين السهر في حياتك لطلب العلم؟ أين السفر في حياتك لطلب العلم؟ أين الكد والتعب والكدح لتكون من علماء المسلمين؟ لا

تبني الأمم إلا بالعلم، ولا يستطيع العلم براحة الجسم.  
أسائل الله عز وجل أن يفقهنا في سنته، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما  
علمنا، إنه ولِي ذلك والقادر عليه: "فَسَتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى  
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" [غافر: 44].  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

الكلمات المفتاحية:

#كيف-تصبح-عالما

---

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.